بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

مقـــدمة

الحمد لله الذى علَّم وفهَّم ، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم ، وأسبغ على عباده نعمًا ظاهرة وباطنة . والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء ، وخاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصَحْبه وسلِّم ، وبعد .

فقد شهدت منطقةُ بلاد السودان الغربى ، وهى منطقة غرب إفريقيا والتى تمتد من بحيرة تشاد شرقًا إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن الصحراء الكبرى الإفريقية شمالاً حتى نطاق الغابات الاستوائية جنوباً . ظهورَ العديد من الدول التى أسهمت فى رفع راية الإسلام فى هذه الأصقاع . مثل امبراطورية مالى ، وامبراطورية سنغاى .

وقد أسهمت هذه الدول فى نشر الإسلام ، والثقافة العربية الإسلامية فى غرب إفريقيا . بيد إفريقية خالصة . حيث إن هذه الدول تكونت على أكتاف أبنائها الأفارقة . وتعتبر جزءً هاماً من التاريخ الإسلامى والذى نعتز به .

ولم تَعشْ هذه الدول بمعزل عن العالم الإسلامى ، بل كانت لها صلاتٌ به وخصوصًا مصر ، وبلاد المغرب . فمصر كانت معبراً لطريق الحج ، ومركزاً لنشر الثقافة الإسلامية فى غرب إفريقيا . والمغرب بحسب القُرب الجغرافى ، والمغرب كان له أثر أيضاً فى نشر الإسلام فى هذه البلاد ، وصبغها بالصِّبغة العربية الإسلامية .

ومن هنا تأتى أهمية الكتاب الذى نتشرَّف بتحقيقه وإخراجه فى ثوب جديد يليق به ، وأهمية الكتاب أنه يعتبر من أهم أربعة كتب تناولت تاريخ منطقة غرب إفريقيا . وهذه الكتب هى : كتاب (الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس) لمحمود كعت . والكتاب الثانى هو لمؤلف مجهول تحت اسم (تذكرة النسيان فى ملوك السودان) .

وثالث هذه الكتب هو كتاب محمد بن بلو والمسمى (إنفاق الميسور فى سيرة بلاد التكرور) ، ورابعها هو الكتاب الذى بين يدى القارئ الآن ، وهو (تاريخ السودان) للسعدى .

وقد واجهتنى عدة صعوبات فى سبيل إخراج هذا الكتاب ، يمكن إجمالها فى الآتى : أولها أن الكتاب تميز بالطول فى الفقرات مع عدم وضع عناوين توضح مضمون هذه الفقرات . بالإضافة لعجمة اللغة التى كان يكتب بها المؤلف نظرًا لأصوله الإفريقية . ومنها أيضاً كثرة الأسماء الخاصة بالأماكن والمصطلحات السياسية الإفريقية ، والتى تقترن بالأسماء مما يجعلها سبباً فى اللبس .

وقد اتبعتُ منهجاً فى إخراج هذا الكتاب ، وهو تقسيم الكتاب إلى فقرات مع وضع عناوين بين حاصرتين ، أما الهامش فقد تم شرح الكلمات الصعبة وترجمة للأشخاص الذين لم ترد لهم ترجمة فى متن الكتاب .

وإتماماً للفائدة قمتُ بوضع دراسة سريعة لدول غرب إفريقيا مع توضيح عن أهم إسهاماتها فى الحياة الإسلامية فى غرب إفريقيا ، كما تحدثتُ عن الكتاب ومؤلفه.

ونظرًا لطول الكتاب ، فقد قمتُ بتقسيمه إلى قسمين . جعلت القسم الأول ينتهى مع نهاية دولة السنغاى . والقسم الثانى يبدأ بالغزو المراكشى لبلاد سنغاى .

وفى النهاية أتمنى أنْ يجد الكتاب قبولاً لدى القراء ، كما أننى أرحب بالملاحظات التى يبدونها ، فالغرض فى النهاية هو نَشر المعرفة ، وإبراز دور الأفارقة فى صناعة التاريخ الإسلامى .

وما أبرىء نفسى إن النفس لأمَّارة بالسوء ، وما كان لى من توفيق فى هذا الكتاب فمن الله سبحانه وتعالى ، وما كان لى من تقصير فمن نفسى والشيطان .

وعلى الله قَصْدُ السبيل

عبد النعيم ضيفى عثمان

الدول الإسلامية فى غرب إفريقيا

لقد حاول كثير من المؤرخين الأوربيين ، أن يثبتوا أن إفريقيا لم تكن تعرف الحضارة قبل قدوم الأوروبيين للقارة . كما أطلقوا على القارة لفظ القارة المظلمة على اعتبار أنها لم تشهد نور العلم ولا الحضارة . ولا يخفى على أحد الهدفُ من هذه المحاولات ، ألا وهى محاولة إظهار أن للأوربيين أثراً فى تقدم الأفارقة . تمهيداً لترسيخ المفاهيم الاستعمارية للقارة ، وكمحاولة للتنصُّل من الجرائم التى ارتكبوها فى حق أبناء القارة .

وعلى الرغم من ادعاءات هؤلاء الأوربيين الظالمة ، فقد شهدت القارة ظهورَ العديد من الدول ، والتى جعلت الإسلام منهجاً لها واتخذته نبراساً لتهتدى به . ومن هذه الدول .

أولاً : دولة مالى (٥٩٦-٨٧٤ هـ/ ١٢٠٠-١٤٦٩) :

أسس هذه السلطنةَ شعبٌ زنجى يُعرف باسم الماندنجو ، ويُطلق عليهم الفولانى[١] اسم مالى . وقبائل البربر كانت تسميهم مل أو مليت . أما المؤرخون العرب فسموهم مليل[٢] .

وكان موقع هذه السلطنة بين بلاد البرنو شرقاً ، والمحيط الأطلنطى غرباً وجبال البربر شمالاً[٣] ، وفى الجنوب جبال فوتا جالون . واشتملت على خمسة أقاليم وهي : إقليم مالى فى الوسط ، وعاصمته بنبى . وإقليم صوصو جنوب شرق مالى . وإقليم غانا شمال مالى ويمتد للمحيط الأطلنطى . وإقليم كوكو شرق مالى . وإقليم تكرور فى غرب مالى حول نهر السنغال[٤] .

---

(١) الفولان : من الشعوب التى كانت تسكن فى منطقة غرب إفريقيا .

(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة ، ص١٧٨

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، وزارة الثقافة ، مصر جـ ٥ ، ص ٢٨٢.

(٤) المصدر السابق ، جـ٥ . ص ٢٨٣ - ٢٨٦ .

وقد اشتُهر العديد من ملوك هذه السلطنة منهم (سندياتا مارى جاطه [١]) وامتدتْ فترة حكمه من عام (٦٢٨ - ٦٥٣ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٥٥ م) . وفى عهده توسعتْ الدولة فاستولى على غانا ، وقد بلغت مدة حكمه خمسة وعشرين عاماً ، وبعد وفاته تولى ابنه (منساو لى) (٦٥٣ - ٦٦٩ هـ / ١٢٥٥ - ١٢٧٠ م) ، وقد قام برحلة للحج فى عهد السلطان الظاهر بيبرس .

ومن أشهر حكام هذه الدولة منسا موسى (٧٠٧ - ٧٣٣ هـ / ١٣٠٧ - ١٣٣٢ م) وهو صاحب رحلة الحج المشهورة [٢] ، والتى كانت مضرب الأمثال . وقد اتسعتْ الدولة فى عهده فضم جاو ، وتنبكت ووصلت الدولة فى عهده من بلاد التكرورغرباً حتى دندى شرقاً ، ومن ولاته شمالاً إلى مرتفعات فوتا جالون جنوباً[٣] .

وظلتْ هذه الدولةُ قائمة ، حتى تعرضتْ للانهيار بسبب انصراف الحكام لحياة اللهو والترف ، وفقدان الروح العسكرية . بالإضافة لتعرضها لغارات الولوف ، والكانم . وقد استطاع سُنِّ على إسقاط هذه المملكة فى عام (٨٧٣ هـ / ١٤٦٩م) وتأسيس مملكة سنغاى بعد سقوط تنبكت فى يده[٤] .

وقد كانت لدولة مالى علاقات تربطها مع مصر ، فقد كان يأتى الطلابُ من مالى للدراسة فى مصر ، ويذهب التجار المصريون لمالى ، وقد شاهد ابن بطوطة [٥] مصريين يقيمون فى مالى ، بالإضافة لوجود علاقات سياسية مثل استقبال الملك منسا موسى حين قام برحلته المشهورة للحج .

---

(١) مارى جاطه : معناها الأمير قلب الأسد .

(٢) المقريزى : الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٨٩٩ م . ص١٣٣ .

(٣) رجب محمد عبد الحليم : الموسوعة الإفريقية ، معهد البحوث الإفريقية ، جامعة القاهرة جـ٢ . ص١٧٧ .

(٤) محمود كعت : الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، بردين ١٩١٣م . ص٤٣

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، دار التحرير ، القاهرة . ص١٧٠ .

ثانيًا : سلطنة سنغاى (٧٧٧ - ١٠٠٠ هـ/ ١٣٧٥ - ١٥٩١ م) :

كان بداية ظهور هذه السلطنة فى عام ٧٠٠ م ، وأول ملوكها الذى اعتنق الإسلام وكان اسمه (زاكسى) وكان يُعرف باسم مسلم دم ، ومعناه : الذى أسلم طواعية[١]. واتخذ عاصمة جديدة له وهى مدينة كوكيا .

وقد خضعتْ هذه الدولةُ لحكم مالى ، والتى كان من عادة ملوكها اتخاذ أبناء الأمراء كرهائن لضمان حُسْن ولاء أمرائها ، ومن هؤلاء الأمراء (سلمن فار وعلى كلن) . وقد نجح على كلن فى الفرار من بلاط مالى . وأخذ فى مناوشة سلطنة مالى ، وتمكَّن من تحرير بعض قبائل السنغاى ، والتى كانت مستعبدة لسلطنة مالى[٢] .

ثم تمكَّن سن على الذى حكم فى عام (٨٦٩ - ٨٩٨ هـ/ ١٤٦٤ - ١٤٩٢م) من الاستيلاء على مدينة تنبكت ، وأسس دولة الصنغى . وقد استمرت مدة حكمه حوالى سبعة وعشرين عامًا ، وأمضى بعضها فى حروب لتوطيد أركان الدولة ، وتأديب القبائل الوثنية[٣] .

ومن أشهر حكام سلطنة سنغاى الاسكيا محمد الطورى ، حيث شهد عصره ازدهارَ الإسلام فى سنغاى ، كما قام بإحياء التقاليد والعادات الإسلامية ، وقد وصلتْ البلاد فى عهده أقصى اتساع لها ، فامتدت من الحوض الأدنى لنهر السنغال غرباً ، حتى حدود برنو شرقاً من الصحراء الكبرى شمالاً حتى سيحو جنوباً . وقد استطاع الطوري إخضاع معظم القبائل .

---

(١) السعدى : تاريخ السودان ، باريس . ١٨٩٨ . ص٣ . وانظر توماس أرنولد : الدعوة للإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، النهضة المصرية - القاهرة . ١٩٥٧ م . ص ٣٥٥.

(٢) السعدى : تاريخ السودان . ص٧. وانظر جميلة إبحمد التكتيك : مملكة سنغاى ، مركز جهاد الليبيين، ليبيا . ١٩٩٨م . ص٤١ .

(٣) مادهو بانيكار : الإسلام والوثنية ، ترجمة : أحمد فؤاد بلبع . المجلس الأعلى للثقافة . مصر . ٢٠٠٣م. ص ١٢٥ .

عدا قبيلتى البولالا ، والموسى [1] .

وقد تعاقب على حكم دولة السنغاى الكثير من الأساكى ، منهم الإسكيا موسى، والإسكيا محمد بنكن ، والإسكيا إسماعيل ، والإسكيا إسحاق الأول . والإسكيا داود ، والحاج محمد الثانى ، والإسكيا محمد الرابع ، والإسكيا إسحاق بن داود ، والإسكيا محمد كاغ .

السعدى فى كتابه تاريخ السودان :

يُعتبر عبد الرحمن بن عمران السعدى من أشهر مؤرخى منطقة غرب إفريقيا ، ويُعتبر عَلَمًا فى مدرسة اشتهرت بغزارة علمها ، فقد أنجبت هذه المدرسةُ العديد من العلماء الأفذاذ منهم : محمود كعت ، وأحمد بابا التنبكتى صاحب (نيل الابتهاج فى تطريز الديباج) .

والسعدى هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدى المولود فى عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م . ويعود فى أصوله العرقية لأسرة إفريقية صرفة على الرغم من اسمه العربى الصرف .

وقد عمل فى بداية حياته بالكتابة ، ثم تولى إمامة جامع سنكرى ، وهو من أشهر مساجد غرب إفريقيا ، وكان يعتبر بمثابة جامعًا وجامعة ، ثم تولى محمود بن عمران العمل بإمامة مدينة تنبكت . ويبدو أن عمله بالإمامة أكسبه روحًا دينية تظهر فى ثنايا كتابه ، فهو قد أفرد صفحات عديدة لذكر سِيَر العلماء ، والصوفية فى كتابه .

والكتاب يحتوى على ثمانية وثلاثين باباً . خصص الباب الأول منه لذكر ملوك صنغى ، والباب الثانى بترجمة حياة (سن على) . أما الباب الرابع فخصصه للحديث عن سلطنة مالى . وبداية من الباب السادس حتى السابع خصصه لذكر بعض علماء جنى ، وتحدث فيه عن مدينة تنبكت ، والباب الثامن خصَّصه للحديث عن قبائل الطوارق . ثم عاد فى الباب التاسع ليتحدث عن علماء مدينة تنبكت حتى

---

(١) شارل أندريه جوليان : تاريخ إفريقيا ، ترجمة طلعت عوض ، الألف كتاب ، القاهرة ، بدون تاريخ ص٨٤ .

الباب الثانى عشر ، حيث عاد للحديث عن سيرة سن على . وبداية من الباب الثالث عشر حتى الثامن عشر خصصه للحديث عن أشهر خلفاء دولة سنغاى . ثم من الباب التاسع عشر حتى آخر الكتاب للحديث عن سنغاى تحت حكم المراكشيين .

وقد طُبع الكتاب لأول مرة على يد المستشرق الفرنسى هوادس ، وطُبع فى مطبعة بردين عام ١٨٩٨ م . ثم قامت منظمة اليونسكو بإعادة نشره عام ١٩٦٤م ، مع ترجمة فرنسية له .

والطبعة الأولى للكتاب عام ١٨٩٨م ، والطبعة الثانية عام ١٩٦٤م غير محققة ، وإنما هى طباعة لنص الكتاب فقط بدون توضيح أو شروح .

يتبقى لنا أن نقول أن مؤلف الكتاب محمود بن عمران السعدى ليس عربىَّ الأصل . ولذلك يوجد فى نص الكتاب أخطاء إملائية ولغوية آثرنا الاحتفاظ بها ، احتراماً لنصِّ الكتاب ، وحتى يظهر الكتابُ فى صورته كما أرادها المؤلف .